الإرهاب في الأدب الروائي

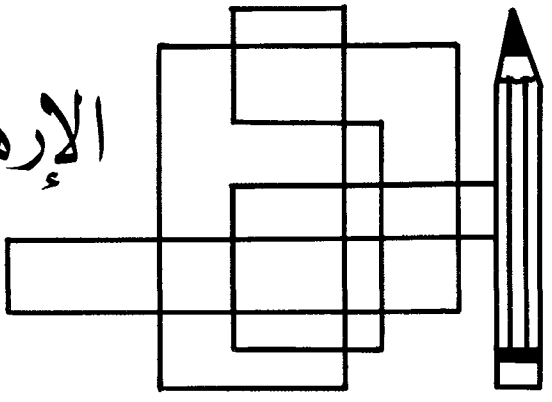

بقلم والتر لاكير
ترجمة كامل يوسف حسين

يبدو الأدب الروائي[1] واعداً بصورة أكبر فيما يتعلق بتفهم الظاهرة الارهابية ، وذلك بالمقارنة بالعلوم السياسية ، غير أنه ينبغي رغم ذلك طرح بعض التحذيرات ، فقد احتل الارهاب مكاناً كبيراً في الاعمال الأدبية الحديثة ، لكن الروايات والمسرحيات والقصائد والأفلام ليست لها القيمة ذاتها في تقديم الأدلة التاريخية والتفسير النفسي .

غير أن الصعوبة الأساسية تتمثل في المنهاج والأسلوب ، فالأدب الروائي هو بالنسبة لدارس الارهاب بمثابة منجم يمكن فيه العثور على مكتشفات طائلة الثراء . إنه ليس مكاناً للتريض ، غير أنه وقبل كل شيء موضوع مربك حقاً فيما يتعلق بالوصول إلى تعميمات . ومن السهل أن نشير إلى نماذج معينة مشتركة في دراسة الارهاب على نحو ما يقوم به دارسو العلوم السياسية ، فهناك مدارس فكرية أساسية محدودة واختلافات ضئيلة فحسب في داخل كل اتجاه ، وقد لا تكون الاستنتاجات صحيحة ولكنها بالتأكيد تطرح على نحو متسق ومتوازن يلائم الانتظام العلمي ، ومع الانتقال من العلوم إلى الفنون فاننا ننتقل من مستوى اليقينيات إلى عالم الانطباع ، ويصبح من المستحيل تقريباً تقديم اطار متماسك يضم حجة منتظمة وواضحة وطرح نماذج مشتركة . وذلك أمر يمكن القيام به ولكن فقط من خلال إفراد موضوعات معينة في كتب بعينها ، (أو مسرحيات أو أفلام محددة) على حساب كتب أخرى) فالأدب كمصدر لدراسة الارهاب لا يزال أرضاً لم تطرقها الاقدام . ولعل دراسة لمجال لم يطرق حتى الآن قد تكون أكثر جدوى في هذه المرحلة من محاولة فرض نموذج واحد واضح على قصص الأبطال والأوغاد الفرديين .

اللامنتمون

للإرهابي الروسي السابق روبشين (سافينكوف) الذي تحول إلى كاتب أهمية من وجهة نظر دارس الارهاب ـ متميزاً في ذلك عن محب الأدب ـ تعادل القدلأ الذي يفوق به دستويفسكي وليام أوفلارتي هنري جيمس في الكشف عن قلب الحقائق . ولم يكن اهتمام أوفلارتي الأول منصباً على فن الرواية وانما على صدق التصوير ، وقد عمل أوفلارتي في صفوف الجيش الجمهوري الايرلندي بينما كتب مؤلف « الأميرة كازاماسيما » في وقت لاحق يقول أن روايته قد نبعت على نحو مباشر تماماً من عادة السير في شوارع لندن ومن الاهتمام بالتجول فيها(«لقد انقضّ على روبنسن من قلب حواري لندن ») ، ان في شوارع لندن الكثير مما تقدمه ولكن هناك حدوداً واضحة لما يمكن أن تعلمه للكاتب فيما يتعلق بالارهابيين ودوافعهم وأفكارهم وأعمالهم ، وقد اجتذبت بعض أوجه الارهاب كلاً من هنري جيمس وجوزيف كونراد . وتعد هذه الأوجه هي المعالم الأكثر مأساوية وغرابة وقدرة على الجذب بالنسبة لدارس الروح الانسانية . وقد استخدمها الكاتبان على نحو ما فعل دستويفسكي لعرض الارهاب التدميري . ومن بين الجوانب الأكثر مأساوية (واثارة للاهتمام على الصعيد السياسي) « دافع يهوذا » وقد لوحظ أن ليوبولد بلوم راح يفكر فيما لا يقل عن ثلاث مناسبات في كاري مقاول البناء الذي كان المنظم الرئيسي لعمليات القتل في فونيكس بارك والذي أصبح شاهداً للادعاء وذلك في كتاب (هو رواية عوليس) كتب عقب أكثر من عقدين من وقوع هذا الحادث ، وقد الهم الارهاب بورجيس تحديد عقدة موضوع حول الخائن والبطل « ربما اعكف على كتابتها يوماً ما » ، والخيانة هي الدافع الرئيسي في روايتي جوزيف كونراد « العميل السري » و « وتحت عيون الغرب » وروايات أخرى ، لا حصر لها . ومن الصحيح بالطبع أن عدداً محدوداً من الجماعات الارهابية ـ ان كان هناك مثل هذه الجماعات التي قدر لها ذلك حقاً ـ قد افلتت رغم وجود الوشاة والخونة في صفوفها . غير أن التأكيد المركّز على الخيانة على حساب الدوافع الأخرى من شأنه افساد الصورة العامة وتشويهها ، وقد يؤدي ذلك إلى عمل رائع من أعمال الفن القصصي ، لكن الكاتب عندئذ يكون مشغولاً بصورة مسبقة بمصير الفرد بينما المؤرخ يعطي المزيد من الاهتمام للحركات الاجتماعية والسياسية .

وقد اجتذب العنصر الغريب في الارهاب كلاً من روبرت لويس

(١) فصل من كتاب « الارهاب » الذي انتهى المترجم من انجازه مؤخراً .

ستيفنسون و ج. ك تشسترتون ، والبطل في « رجال الديناميت » لتشسترتون هو « زيرو » الشخصية المروعة التي ترغب في نسف تمثال شكسبير في ميدان لايسستر ولكنها تنسف بدلاً من ذلك دار سيدة بريئة اعتقاداً بأن ذلك سيهز انجلترا من الأعماق وان « جلادستون القاتل العجوز سيجبن أمام اصبع الانتقام الموضوعة على الزناد » ، ويبدولنا بطل « الرجل الذي اقبل يوم الخميس » لتشسترتون أيضاً ضالعاً في مؤامرات مجموعة من الفوضويين هم جميعاً عملاء للبوليس يتجسسون بعضهم على البعض الآخر . ومن النقاط الهامة في الرواية مطاردة تجري على امتداد لندن على ظهر احد الفيلة . وقد أوضح جوزيف كونراد وجهات نظره فيما يتعلق بروسيا بجلاء تام في مقدمته لرواية « تحت عيون الغرب » . فأبطاله هم « قردة في غابة مخيفة » وأحدهم ـ نيكيتا ـ هو « الزهرة المكتملة للبربرية الارهابية » ، ويقول كونراد ملاحظاً في حديثه عن شخصيته : « ان ما أزعجني أكثر من أي شيء آخر في معالجته لم يكن وحشيته وانما عاديته وابتذاله » ، ويعكس سلوك الارهابيين الاستجابات المعنوية والانفعالية من جانب المزاج الروسي ازاء ضغط اللاشرعية الطغيانية « التي يمكن بالمعايير الانسانية العامة اخضاعها لصنيعة اليأس العبثي الذي يستثيره الطغيان العبثي » . ومن الجلي أن كونراد لم يكنّ حباً للروس أو وداً للفوضويين الذين وُصفوا دون استثناء في رواياته باعتبارهم منحلّين ذوي تركيب عضوي مثير للسخرية ، أو باعتبارهم معتوهين من قبيل « البروفسور » في رواية « العميل السري » الذي كان يغادر داره دائماً حاملاً قنبلة في جيبه بحيث يستطيع في لحظة أن ينسف نفسه ورجل البوليس الذي يحاول اعتقاله .

كانت الفوضوية أحجية بالنسبة للرأي العام في أوروبا الغربية في ذلك الوقت ، وأوردت الصحف وقتها أنباء عن وجود مجتمع غامض يتألف من رجال لا يعرفون الرحمة ، شعارهم قتل الملوك والاطاحة بالحكومات ، وكانت هناك تكهنات على احسن الفروض فيما يتعقل بأصل أولئك الرجال الغاضبين ، أهم من الاشتراكيين أو المعدمين (أياً كان معنى هذه الكلمة) أو المثاليين الذين تم تضليلهم أم المجرمين أو المعتوهين . وان هنري جيمس لم يستطع أن يقطع برأي في هذا الصدد ، ففي الأميرة كازاماسيما نجد روبنسون عاملاً شاباً ماهراً ينضم إلى الفوضويين بسبب تعاطف اجتماعي غامض (ينطبق الدافع ذاته بصفة عامة على الاميرة ذاتها) ، وهو يعمد إلى الانتحار حينما يطلب منه القتل باسم قضية لم يعد يؤمن بها . إن روبنسون مجرد رفيق سفر « منقسم إلى حد العذاب » من خلال ضروب التعاطف التي تجذبه في اتجاهات مختلفة ، وفي الرواية ذاتها تظهر قلة من الثوريين الحقيقيين مثل مونيمان وهوفيندال ، دون أن تتضح على الاطلاق الاسباب التي تدفعهم إلى التصرف على النحو الذي يسلكونه . ولقد قيل انه ما من حادث سياسي في الرواية لا يدعمه سجل حافل في الحياة الواقعية ، ولكن على الرغم من أن هنري جيمس قد قرأ عن الايرلنديين والفوضويين فقد كان يعالج عالماً يفتقد الاحتكاك معه عن كثب .

وكانت الكاتبة الالمانية ريكاردا هوتسن المنتمية إلى المدرسة الرومانسية الجديدة تحيط بأقل مما احاط به هنري جيمس عن الارهابيين . وتبدو روايتها « الصيف الأخير » التي كتبت عام ١٩١٠ غير واقعية على الاطلاق في ذلك الوقت ، وتدور القصة حول ليجو المدرس الشاب الذي يلتحق بمعية احد كبار المسؤولين القيصريين ليكون من بين مهامه حماية الحاكم جيجور ، ويحدث انه يشعر بالود والاحترام ازاء العائلة لكن ذلك لا يحول بينه وبين تنفيذ مهمته وهي قتل الحاكم ، وتستخدم لذلك طريقة حاذقة للغاية ، فالحرف ج في الآلة الكاتبة الخاصة بالحاكم يستخدم كمفجر لقنبلة تنفجر في اللحظة التي يوقع فيها جيجور الخطاب الذي كتبه لأطفاله ، ولا حاجة للقول بأن ذلك أيضاً هو ختام الرواية[1] .

وتظهر ملامح صورة واقعية للغاية عن « الدعاية من خلال العمل » وذلك من خلال صفحات روايات شبه توثيقية ذات مستويات أدبية مختلفة صدرت قبيل أو بعيد بداية القرن الحالي .

ولا تعد رواية أميل زولا « باريس » الصادرة في ١٨٩٨ من رواياته البارزة ولكنها تنقل انطباعات هامة عن عصر عمليات الاغتيال المشهودة ، ويتلقى القارىء محاضرة عن المتفجرات ويتابع الفوضوي في غابة بولونيا ويراقب محاكمته واعدامه .

وكانت لندن هي مسرح رواية ماكاي « الفوضويون » التي كرست بالاساس للنزاعات بين أنصار العنف العضوي (تروب) وأولئك الذين يذهبون إلى أن الارهابيين يلقون بأنفسهم في أيدي السلطة (أوبان) وقد نشأ ماكاي ـ الذي ولد في انجلترا ـ في المانيا وكتب باللغة الالمانية وقاده مسار عمله الأدبي والسياسي في تاريخ لاحق بعيداً عن المثل الفوضوية لشبابه ، ولم يعد أحد يطالع اليوم رواية ماكاي ولكن ذلك ليس صحيحاً بالنسبة لروايتين أخريين احداهما بالاسبانية والأخرى بالتشيكية ، ظلتا لسوء الحظ مجهولتين تماماً خارج بلديهما ، وتحفل رواية بيو باروجا « الفجر يبزغ » التي تقع احداثها في باريس ومدريد حوالى بداية القرن الحالي بالمناقشات حول الاشتراكية والفوضوية ومستقبل اسبانيا واستخدام الديناميت ، وتفيض الرواية بحيوية تفوق بكثير عمل ماكاي دون أن يرجع ذلك فحسب إلى الشخصيات التاريخية العديدة التي تظهر فيها ، وبطل الرواية هو جوان الكازار وهو مصور شاب يصل إلى القناعة بأنه يتحتم عليه أن يقاتل من اجل النساء والأطفال ومن اجل كافة الضعاف والعزل . إن المجتمع ينبغي أن يُدمّر من أجلهم ويتعينّ أن يعالج بالكي الوحشي ، وكل السبل والوسائل صالحة اذا ما كانت تؤدي إلى الثورة ،

---

(١) عقب ذلك بستة وستين عاماً شقت أنا ماريا جونز ليز البالغة من العمر ثمانية عشر عاماً طريقها إلى عائلة الجنرال جاردوزو رئيس بوليس بوينس ايريس وتوثقت أواصر الصداقة بينها وبين جرازيلا كبرى بنات الجنرال ، وقد تلقى الجنرال تحذيرات من مرشديه فيما يتعلق بانا ماريا ولكنه تجاهل هذه التحذيرات ، وكانت الفتاة غالباً ما تقضي الليل في شقة العائلة وقامت بالفعل بوضع قنبلة تحت فراش الجنرال ، وقد قتل الجنرال جاردوزو وعثر على جثة أنا ماريا جونزليز وهي عضو في الجبهة الثورية الشعبية عقب عدة أيام من وقوع الحادث في شوارع بوينس ايريس (نيويورك هيرالد تربيون ٢٢ يوليو ١٩٧٦) (المؤلف) .

ولكن الشاب المثالي يخفق في عالم تسوده الأثرة الوضيعة ، وبالقرب من مقبرته يقول احد رفاقه«إنه أصبح متمرداً لأنه أراد أن يكون عادلاً» .

أما رواية التشيكية ماري ماجيروفا « باسم الجمهورية » فهي أقرب إلى الأحداث التاريخية ، فهي تدور حول جاكوب (لوكافيرشينين) الحائك اليهودي البولندي الشاب الذي ينتقل الى باريس وينضم إلى جماعة « المحررون » الارهابية ، وحينما تصدمه الحرية الزائفة للنزعة الجمهورية الفرنسية من ناحية ، يدفعه إلى التمرد الموقف الكلبي للجماعة ومن ناحية أخرى يقرر أن يقوم بشيء ما يأمل في أنه سيفجر انتفاضة ثورية ، وفي الفاتح من مايو ١٩٠٥ يقوم باطلاق النار على ثلاثة من الضباط أمام قصر الجمهورية ، لكن الجماهير التي بدت أبعد ما تكون عن الانتفاضة تسعى إلى شنقه فوراً فلا ينقذه الا وصول البوليس .

وتقوم رواية فرانك هاريس « القنبلة » الصادرة في ١٩٠٨ كذلك على حادثة تاريخية معروفة هي حادث تفجير القنابل في هاي ماركت بشيكاغو في ١٨٨٦ ، ويروي هاريس الذي أقام في الولايات المتحدة سنوات عديدة قصة لويس لينج ، وهو احد المتهمين الرئيسيين في المحاكمة التي أعقبت الحادث ، وذلك من خلال عمليات اعادة التذكر التي يقوم بها شخص يدعى رودولف شنوبيلت يناط به لأغراض الحبكة الروائية القاء القنبلة . إن شنوبيلت ـ وهو مهاجر حديث ـ ينضم إلى حلقة لينج الفوضوية بعد أن صدمه الاستغلال الذي يتعرض له العمال الأجانب . ويقول لينج إنه يؤمن بالقوة « ذلك المتحكم الأخير في شؤون البشر . إن المرء لا يسعه أن يقابل الهراوات بالكلمات أو الصفعات بأن يدير لها الخد الآخر ، ان العنف ينبغي أن يقابل بالعنف » . وقد استمد هاريس جزءاً يعتد به من مادة الرواية من أنباء الصحف المعاصرة لهذه الفترة ، وهو يقدّم الفوضويون لنا في ضوء يحمل التعاطف معهم ، وقد اعتبر النقاد في فترة لاحقة « القنبلة » عملاً فذاً ، وأشاد بها الكتّاب اليساريون وذلك على الرغم من القناعات المهتزة للمؤلف .

كان هناك استشراف في التسعينات من القرن الماضي للارهاب ، والارهاب المضاد الذين يمكن أن يؤديا إلى كارثة كونية ، وفي رواية اجناتيوس دونيللي « صرح قيصر » نرى نيويورك وهي تحترق عن آخرها في تمرد « اخوة الدمار » ضد أوليجاركية محدودة تصر على البقاء في السلطة بالاستعانة بأسطول من المناطيد المزودة بقنابل الغاز . وتعد تلك الرواية عملاً متميزاً من أعمال الروايات العلمية اذا ما أخذنا في الاعتبار أنها كتبت في ١٨٩١ .

وفي الجزء الثاني من رواية جورنسون « ماوراء القوى الانسانية » يواجه إلياس سانج زعيم العمال المضربين هولجر الغارق في الصلف والوحشية والذي يمثل مصالح « رأس المال العظيم » ، ويقرر سانج بدوره استخدام الديناميت باعتباره سهمه الأخير ، ويقتل سانج في غمار هذه العملية ، ويفقد هولجر ساقيه ، ولكن الفصل الأخير يشهد مصالحة لا تفلح في إقناعنا بصورة كلية . ولم يكن جورنسون يحب الفوضويين ولكنه لاحظ أنهم هم شهداء العصر الذين يرحبون بالموت وعلى شفاههم ابتسامة لأنهم يؤمنون بالمسيح وبأن استشهادهم سيكفل خلاص الانسانية .

وقد استمر الارهاب كمشكلة أخلاقية في السيطرة على أذهان كبار كتّاب الثلاثينيات والاربعينيات ، وكان برتولد بريخت كما يُشار عادة استثناء من ذلك ، فقد افتتن بالعنف وأراد أن يصدم الرأي العام . إن الرفيق الشاب في مسرحية من مسرحياته الشهيرة يتعين أن يتم قتله لأنه بسبب شفقته الحمقاء وشعوره بالشرف والعدل الذي وضع في غير موضعه قد كشف عن هويته ، وبذلك عرض المجموعة المتآمرة بأسرها للخطر « ومن هنا فقد قررنا أن نبتر قدمنا عن جسدنا » حقاً إن الشيوعيين يشعرون بالتعاسة « إنه لأمر فظيع أن يقتل المرء » وقبل ارتكابه العمل فانهم يطلبون الاذن من الضحية .

وتعاود معضلة الارهاب الظهور في « الأيدي القذرة » لجان بول سارتر وفي « العادلون » لالبيركامو ، والأحداث في مسرحية سارتر تقع في احدى دول جنوب أوروبا ، حيث يقرر هوجو أن يقتل هودرر سكرتير الحزب ، وعلى الرغم من أن هناك أسباباً سياسية ، فان دوافعه الحقيقية هي دوافع شخصية ، فهو يرغب في أن يعترف به رفاقه لا كصحفي فحسب وانما كرجل فعل أيضاً ، وفي النهاية وبعد تردد طويل يقتل هودرر بالفعل ولكن بعد أن يجد زوجته هو بين ذراعي هودرر ، ان هوجو يعلم تماماً أنه ستتم تصفيته بدوره وان ذلك قد أضفى المعنى على ما قام به ، وعلى الرغم من أن « الأيدي القذرة » مؤثرة من الناحية الدرامية إلا أنها تخلق تشوّشاً ، وقد هاجمها الشيوعيون ـ شأن مسرحية بريخت ـ بحدة مما أثار استياء سارتر إلا أنها ظلت واحدة من أكثر مسرحياته إحرازاً للنجاح الجماهيري .

وتبدو القضايا الأخلاقية كثر وضوحاً في مسرحية كامو التي تتخذ من اغتيال كالاييف للدوق العظيم سيرجي نقطة انطلاق لها . إن المحاولة الأولى تكلل بالفشل لأن كالاييف لم يرد قتل أطفال سيرجي الذين كانوا بصحبته ، ويثور نزاع مرير بين الارهابيين ، فيقوم كل من دورا وانينكوف وفيونوف بتبرير عمله لأن العالم الجديد والأفضل لا ينبغي استهلاله بقتل الأطفال . ومن ناحية أخرى فان ستيبان وجاكوب الحديدي يذهبان إلى القول بأنه بمعيار مصير البشرية فان حياة طفلين لا تقاس بالمقارنة بحياة الألوف الذين سيلقون حتفهم جوعاً كل عام ما لم يتم تدمير النظام ، لكن كالاييف لا يقبل هذه الحجة . إن من المؤكد أن الدوق ينبغي أن يموت وعليه هو أن يقوم بهذا العمل ، ولكن القتل خطأ فكل حياة مقدسة والجريمة ينبغي التكفير عنها بموت القاتل ، وهكذا فان كالاييف بعد الاغتيال لا يطلب العفو الذي ربما كان من الممكن أن يحصل عليه ، وحينما تصل أنباء اعدامه فان حبيبته دورا تعلن أن دورها قد حان لتقوم بالقاء القنبلة في المرة القادمة .

الارهاب والأدب الروسي

تعد رواية دستويفسكي « المأخوذ » التي كتبت بين عامي ١٨٧١ ـ ١٨٧٢ أفضل رواية معروفة في الأدب العالمي تدور حول الارهابيين . وتقوم بدرجة كبيرة على قضية باكونين ـ نيتاشييف ، ان بايوتر

فيرخوفينسكي الذي تملكته فكرة التدمير يقوم بقتل الطالب شاتوف وهو من الرفاق المتآمرين برغم أنه يمثل خطر النكوص ، أما في الحقيقة فانه يقتله بسبب الضجر ، وفي قصة ايفان ليسكوف « لا مفر » الصادرة في ١٨٦٤ نجد أن العدميين هم جميعاً مع استثناء وحيد شخصيات صبيانية أو متفسخة ، وفي رواية « تحت تهديد الخناجر » التي كتبت في ١٩٧٠ - ١٩٧١ نجدهم يتصرفون كقتلة مأجورين فيقومون بقتل زوج ثري لترثه أرملته ، ويمضون في القتل والسرقة والفساد بكافة الطرق المتاحة ، وقد اتهم معاصرو ليسكوف الأكثر تقدمية الكاتب بأن البوليس السري قد رشاه لكتابة هذه الرواية . أما ليسكوف نفسه فيزعم أنه قدم « تصويراً دقيقاً للواقع » .

كان الدافع الارهابي موضع افتتان العديد من الكتّاب الروس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وقد دافعت الطليعة من الكتاب عن « العدميين » ، ولكن ذلك من وجهة نظر الرقابة القيصرية كان يتعيّن القيام به بلغة تذكر بخرافات أيسوب ، وبالمقارنة بذلك نجد أن الروايات والمسرحيات المناهضة للعدميين (والتي كتبها كلايشنكوف ، ماركيفتش ، اوستريالوف ، والأمير ميشريسكي) كانت أكثر صراحة ، وقد نُسي هذا الانتاج الأدبي عن استحقاق بأسره وذلك فيما عدا أعمال تورجنيف الذي لم يكن عدميّوه من الارهابيين .

وتثير اهتمامنا بقدر أكبر تلك الكتب التي صدرت خارج روسيا أو داخلها بعد ١٩٠٥ ، حينما غدت الرقابة أكثر تراخياً بصورة ملحوظة . وكان سيرجي كرافتشنسكي وهو من قيادات فوليا ، يؤلف العديد من الروايات التي لا تثير الاهتمام ولكنه كتب كذلك التصوير الكلاسيكي للحركة الارهابية في أواخر السبعينيات من القرن الماضي ، وكان مؤلفه « روسيا السرية » عملاً كُتب بموادّ من الحب بصورة واضحة ، فأبطاله وهم قادة نارودنايا فوليا نراهم دون استثناء مثاليين ذوي مستوى رفيع على الصعيد الأخلاقي . كان ستيفانوفيتش ملحداً لكن أوثق العلاقات كانت تلك التي تربطه بأبيه القس القروي العجوز ، ويوصف ليسوجوب باعتباره « قديساً » وفيرازاسوليتش بوصفها ثورية ذات « ارادة حديدية وانضباط حديدي تمضي دائماً في الصف الأول نحو النار » . حقاً ان هناك اشارات عابرة إلى انفعال أوسينسكي الذي يصل إلى حد الحمى والى حقيقة انه كان يعشق النساء وكن يعشقنه ، كذلك يتم ايضاح أن كليمنتز كان قائداً ملهماً ولكنه لا يناسب تماماً العمل في مجموعة تآمرية محدودة ، غير أنه بصفة عامة لا نجد إلا القليل من الظلال في هذه القصة الحافلة بالأشخاص الفاضلين والمجيدين ، وثمة ما يدعو إلى الافتراض بأن هذه الصورة تنطبق على الحياة الواقعية . ذلك ان رجال ونساء نارودنايا فوليا كانوا حتماً أكثر البشر قدرة على الاجتذاب . ويظهر ذلك أيضاً من خلال الأعمال الأخرى المعاصرة ، في رواية صوفيا كفاليسكي نجد الشابة فيرا بارانتزوفا تتبع زوجها الارهابي الى منفاه في سيبيريا ، وتقول بابتسامة مرحة : « اتبكي من اجلي ؟ آه لو علمت كيف اشفق على أولئك الذين يبقون هنا » ، ان هناك دائماً ذلك الدافع للتضحية بالقلة المختارة والايمان بالنصر النهائي ، فعلى سبيل المثال تنتهي احدى قصص كرافتشنسكي باعلان انه على الرغم من أن البطل اندريه كوزوخوف قضى نحبه فان القضية التي مات من اجلها ما زالت تحيا : « انها تمضي قدماً من هزيمة إلى هزيمة نحو النصر النهائي الذي لا يمكن احرازه في هذا العالم التعس إلا من خلال المعاناة والتضحية بالنخبة المختارة » ، ويظهر اعضاء نارودنايا فوليا في ضوء مماثل في رواية ليوبولد ستانسيبلاف بروزوزوفيسكي « اللهيب » التي ظلت مجهولة تماماً على وجه التقريب في الغرب .

وحيث لم ير جوزيف كونراد شيئاً إلا « رداً أبله ومروّعاً نابعاً من نزعة ثورية طوباوية تماماً » أثار بروزوزوفيسكي تعاطفاً أخلاقياً رفيعاً حينما وصف أفكار وأعمال قبضة من الفتية الأبطال الذين تحدّوا السلطة الباطشة للنظام القيصري ، وحيث لم ير كونراد الا قناعة غريبة بأن تغيراً أساسياً في القلب ينبغي أن يعقب سقوط أيّ مؤسسة بشرية (« إن أولئك الناس يعجزون عن ادراك ان كل ما يمكنهم فرضه هو مجرد تغيير في الأسماء ») فان نظيره البولندي قد أذهلته رؤى نهوض انسان جديد ومجتمع جديد ، وقد كتبت رواية بروزوزفسكي في شكل مذكرات يدبجها نبيل بولندي شاب هو ميخائيل كانيوفيسكي يلقي باقداره في كفة ثوّار السبعينيات من القرن الماضي . وفي الرواية يظهر نيتاشييف وميخايلوف وزليابوف وجولدنبرج وكثيرون غيرهم دون تغيير يذكر في الأسماء . ويلتزم المؤلف بشكل عام وبصورة وثيقة بالتسجيل التاريخي ، ويتتبع القارىء البطل في رحلته الثورية إلى كومونة باريس وعمال سويسرا وايطاليا ، ولكن الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية لروسيا في تلك الفترة هي التي تشكل في المقام الأول نسيج الملحمة العظيمة التي تنتهي باطلاق سراح كانيوفيسكي من قلعة شلوسيلبرج التي قضى فيها سنوات عديدة سجيناً . ويبدو واضحاً ان « اللهيب » عمل كتب بمداد من الحب ، فأعضاء نارودنايا فوليا ينظر اليهم - كما في العديد من الأعمال الأخرى التي صدرت عن هذه الفترة باعتبارهم نبلاء يناضلون من اجل قضية قدر لها أن تنتصر فحسب في المستقبل . ان دم الشهداء هو بذرة الكنيسة ، وتنعكس العناصر الدينية في العديد من عناوين الفصول ، وعلى الرغم من بعض الضعف الأدبي فان « اللهيب » هي واحدة من أكثر الصور التي كتبت عن نارودنايا فوليا نبضاً بالحياة وربما كانت أكثرها إلهاماً للخيال . غير أن هذا الكتاب لم يقدر له على الاطلاق أن يحظى بالنجاح الذي يستحقه ، فيما انه كتب باللغة البولندية فقد ظل عملاً محدوداً في وطن بروزوزوفيسكي الأم ، لأنه يعالج التقاليد الثورية للأمة الغاصبة . وقد تردّد الروس في البحث عن مصدر للإلهام لدى مؤلف لم تكن أوراق اعتماده تعلو على الشبهات ، فعقب كتابة الرواية بعدة سنوات ، أعلن بيرتسيف رجل البوليس السرّي الذي لا يعرف الكلل للحركة الثورية الروسية ان الكاتب كان جاسوساً لبوليس القيصر ، ولكن بيرتسيف على الرغم من أنه كان أول من أعلن أن آزيف هو عميل للبوليس لم يكن معصوماً عن الخطأ . وقد وقف أصدقاء بروزوزوفيسكي جميعاً إلى جواره ودافعوا عنه ضد هذه الاتهامات ، وكان

مرشد بيرتسيف هوباكاج أحد مسؤولي الاوخرانا في وارسو ، ولم يكن لديه حافز شخصي مقنع يدفعه لتحطيم بروزوزفيسكي ، فهل يمكن أن يكون مرشداً للبوليس هو الذي كتب « اللهيب » ؟ لقد شغلت هذه القضية الدوائر الأدبية البولندية على امتداد العشرينيات والثلاثينيات ، وعلى الرغم من أن الدليل ليس حاسماً كلية فان هناك ما يبرر الافتراض بأن بروزوزوفيسكي (الذي توفي في فلورنسا عام ١٩١٠) ربما عمل ذات مرة كمرشد للبوليس .

إن ذلك كله يدور حول أبطال السبعينيات والثمانينيات ، أما الحركة الارهابية الروسية لاوائل القرن العشرين فكانت أقل حظاً لدى المؤلفين الذين كتبوا عنها ، ولكن من الصحيح كذلك أن الواقع أصبح أكثر تعقيداً ، وأن دوافع الارهابيين كانت غالباً أقل وضوحاً . حقاً كان هناك من يعجبون بالحركة بدءاً بجوركي وانتهاء بليونيد اندرييف ، لكن أولئك الذين امتلكوا ناصية معرفة أوثق قدموا صوراً أقل مدعاة للتقدير . ويعد بوريس سافينكوف (روبشين) الذي كان في وقت من الأوقات زعيماً للمنظمة الارهابية التابعة للثوريين الاشتراكيين مثالاً طيباً في هذا الصدد ، فلدى تخطيط عمليات الاغتيال في ١٩٠٥ لم تهاجمه الشكوك حول صحة قضيته . وينتمي البطل الارهابي لروايته التي كتبها بعد ذلك بأربع سنوات الى نوع مختلف تماماً من الشخصيات حيث يصف نفسه بأنه ضجر من أفكاره ورغباته ، يقول « ان الناس وحياتهم يثيرون ضجري ، وثمة حائط بيني وبينهم ، دع الحب ينقذ العالم ، انني لا أحتاج الى الحب ، انني وحدي ، اللعنة على العالم . . . » غير أن هناك في الوقت ذاته انشغالاً مسبقاً بالقضايا الاخلاقية ، يقول البطل ان الاختيار هو بين القتل طوال الوقت أو عدم القتل على الاطلاق ، لماذا يتعين عليه أن يتلقى الثناء لقتل رئيس البوليس ولماذا يكون الكولونيل وغداً لقيامه بشنق الثوريين ؟ ألم يتصرف هو أيضاً انطلاقاً من الاقتناع وليس لتحقيق النفع المادي ؟ واذا كان الأمر كذلك فمن الذي وضع هذه القواعد ؟ أهو ماركس وانجلز وكانط الذين لم يقتلوا رجلاً على الاطلاق في حياتهم ؟ وفي رواية سافينكوف « الجواد الشاحب » التي كتبت في شكل مذكرات ، نجد أن كلاً من الأبطال الخمسة تسوقه دوافع مختلفة : فانيامتدين متعصب ، جينريتش اشتراكي ، فايدور إرهابي انفعالي ، لجأ إلى العنف الثوري بعد أن شاهد القوزاق يقتلون امرأة خلال إحدى المظاهرات ، وارنا تشارك لأنها تعشق جورج البطل الرئيسي الذي لا يؤمن بشيء أو بأحد . وقد خلقت « الجواد الشاحب » عاصفة صغرى في الدوائر اليسارية الروسية وأدانها رفاق سافينكوف بشدة ، وغدت العاصفة فضيحة كبرى في ١٩١٣ مع صدور رواية سافينكوف الثانية « ما لم يحدث أبداً » ، لقد غدت الفوضى الأخلاقية الان ضاربة الأطناب وتحت قشرة نيتشوية كان هناك الخواء والجريمة والخيانة فحسب ، فزعيم المجموعة دكتور بيرج (آزيف ؟) وهو عميل للبوليس يلقى مصرعه على يد ابرام وهو ارهابي يهودي . المناخ كله مناخ قوامه اليأس ، فالنضال لا يمكن الفوز فيه ، ومن المحتم أن تسيطر الحكومة ، ويمثل مصير سافينكوف بعض الأهمية لنا ، فقد عمل في صفوف الجيش الفرنسي خلال الحرب العالمية الأولى وتولى لفترة قصيرة منصب الحاكم العام لبتروجراد في ظل كيرنسكي في ١٩١٧ ثم انتحر أو قُتل في احد السجون السوفيتية في ١٩٢٤ وذلك بعد أن تردد أنه قام بتنظيم عمليات ارهابية ضد البولشفيك .

المنتمـــي

كان سافينكوف حالة فريدة بين معاصريه من الكتّاب الروس . أما الأدب الفرنسي والانجليزي الذي يدور حول الفوضوية فانه فيما عدا استثناءات ملحوظة يكشف عمن كتبوه أكثر مما يكشف عن الذين شاركوا في الارهاب . ويعدّ الأدب الايرلندي أكثر عطاءً في هذا الصدد .

إن المرء لا يبتعد على الاطلاق في المسرحيات والروايات والقصص القصيرة الايرلندية عن القنبلة والقناص ، وذلك أمر ينطبق على ييتس وجويس ، وذلك على بريندان بيهان الذي وصل في السادسة عشرة من عمره إلى بريطانيا في اعقاب الحرب العالمية الثانية حاملاً معه بضع قنابل . والقنبلة تظهر كذلك في « فصح ١٩١٦ » لييتس وكذلك في « شجرة الورد » التي لا تحتاج الا إلى أن تروى لتعود الخضرة من جديد . وكذلك في « ستة عشر قتيلاً » الذين يقترعون على تقليب الوعاء المتّقد ، وربما كان ما قاله أودين عن ييتس (« ان ايرلندا المجنونة تدمي قلبك فتدفعك إلى عالم الشعر ») أكثر انطباقاً على كتاب الجيل التالي . وفي بعض الاحيان تغدو التلميحات أكثر غموضاً (كما في « العودة الثانية » لييتس) ولا يزال الخبراء يقدحون أذهانهم في تفسيرها ، كما أنها ليست حافلة دائماً بالثناء ، ففي « عوليس » و « يقظة فينجان » يظهر أبطال الماضي في ضوء فظيع ومتوهج كالنار ، ولكن جويس لم يكن في وقت من الأوقات مثال الايرلندي الوطني ، و « الجمال الرهيب » توازنه على أية حال أشياء عديدة بالغة القبح ، ولكن ييتس كان يشعر بالضيق ازاء حقيقة ان الايرلنديين الشبان يعاملون الأدب باعتباره تابعاً للمبدأ السياسي وكأداة للسياسة ، وقد لوحظ أن ييتس حينما برّر « انتفاضة الفصح » قام بذلك على أساس أخرى غير الأسس الاخلاقية ـ « لقد ولد جمال رهيب » وليست فضيلة رهيبة ، وهناك كلمة شين أوكاسي المؤثرة في تأبين أبطال ١٩١٦ :

« لقد ساعدوا الله في اسنهاض ايرلندا : فدعوا الشعب يرد عليهم الآن ، وليس أمامهم الآن وقد حل بهم الأعياء والتعب الا رقاد طويل ، طويل ، شريط رفيع من اللهب يتدفق من صف البنادق المشرعة ثم رقاد طويل . . . لكن كاتلين ابنة هوليهان تسير منذ الآن والحمرة تخضب وجنتيها الشاحبتين ، انها تسمع الهدير في قلوب أبناء الشعب ، وعشاقها يلتفون حولها ، فقد تغيرت الأشياء ، تغيرت تماماً .

لقد ولد جمال رهيب ، أيها الموتى الأعزاء المساكين ، أيها المسكين و . ب . ييتس » .

لكن مسرحيات أوكاسي لا تتضمن الكثير من صور الرثاء تلك ، فالنساء متطرفات ، والرجال يقاتلون لأنهم يخشون الاعتراف بخوفهم - أوما هو أسوأ من ذلك - لكي يقوموا بالنهب ، وفي المقام الأول فان الجميع يستسلمون للادعاء . وفي رواية « في ظل رجل مسلح » نجد ميني الفتاة الشابة المفعمة بالاعجاب تسأل دافورين (الشاعر والرعديد) « الا تخاف أبداً ؟ » فيقول دافورين « اعترف بأن المرء يشعر قليلاً بالعصبية في أول الأمر ولكنه سرعان ما يعتاد على ذلك بعد قليل من العناء وفي النهاية يلقى رجل السلاح القنبلة بلا اكتراث كما يلقي تلميذ كرة الثلج » لكن ميني تخرج بالفعل الى الشوارع صائحة بأعلى صوتها « تحيا الجمهورية » فتقتل بينما يسارع دافورين إلى الاختباء .

وتزيد قضية جاك كلايتيرو في « المحراث والنجوم » الصادرة عام ١٩٢٦ الأمور وضوحاً كذلك ، فهو يتساءل : « لم ينبغي على كلايتيرو أن يكون له ما يربطه بجيش المواطنين ؟ لأنه فحسب لم يقلد رتبة الكابتن ، انه لن يرتبط بأي شيء لا يمكنه أن يبرز فيه إلى المقدمة . لقد كان على يقين من تقلده لتلك الرتبة إلى حد أنه ابتاع حزاماً من نوع سام براون وراح يلتف به ويقف عند الباب ليستعرضه ، وقد انفجرت فضيحة في العرض الأول للمسرحية واضطر أوكاسي إلى مغادرة دبلن إلى لندن .

في « جونوو الطاووس » (التي أصبحت فيلماً كذلك في ١٩٣٠) يتم اعدام جوني بويلي الشاب العصابي على يد متطرفي الجيش الجمهوري الايرلندي ، وذلك لخيانته لأحد جيرانه وابلاغه البوليس عنه ، وكان الكتّاب ومؤلفو المسرحيات والشعراء الايرلنديون شهوداً يغمرهم الارتباك وربما تضاعف ارتباكهم لأنهم كانوا يعرفون الارهابيين حق المعرفة . وقد وافق معظمهم على ما قاله أوليري في مناسبة سابقة عن رجال الديناميت « ثمة أشياء لا ينبغي أن يقوم بها الرجل حتى ولو كانت لإنقاذ أمة بأسرها » .

وتتضمن مسرحية بيتس « كاتلين هوليهان » وعداً من المرأة العجوز لاولئك الذين يموتون من اجل ايرلندا بأن « ذكراهم ستحيا إلى الابد » . وفي هذه المسرحية تظهر ايرلندا متنكرة في زي امرأة عجوز ولكنها في النهاية تتحول لتتخذ مظهرها الحقيقي « هل شاهدت امرأة عجوزاً تمضي عبر الطريق ؟ انني لم أشاهد عجوزاً وانما صبية تسير في بهاء الملكات » . حينما رقد بيتس في ١٩٣٩ محتضراً راح يتذكر هذه الكلمات على نحو مفزع ويطرح هذا السؤال على نفسه « هل ارسلت مسرحيتي تلك بالرصاص الانجليزي الى رجال بأعينهم ؟ » .

إن الأبطال الحقيقيين في مسرحيات أوكاسي وروايات أوفلارتي هم النساء (غير المحاربات) . فالرجال غالباً ينتمون إلى أنماط قلقة من الشخصيات ، وشخصية ليو أودونيل التي أبدعها شين أوفاولين لا تعدو أن تكون نقيضاً للبطل . أما الكوماندوردان جالاجر في رواية وليام أوفلارتي « المرشد » فانه يبلغ فتاته بأنهم « يتحدّثون في مقر القيادة عن الرومانسية واليسارية وكافة أنواع الأفكار الغريبة . ما الذي يعرفونه عن النمط الشاذ للعقل القذر الذي يشكل الفلاح الايرلندي ؟ » غير أن أوفلارتي وفرانك أوكنور وشين أوفاولين كانوا جميعاً ممن قاتلوا في صفوف الجيش الجمهوري الايرلندي (وكان الأخير مديراً للمنشورات) وكان أوكاسي شيوعياً بشكل ما .

وأياً ما كانت الاتجاهات السياسية التي يقرها الارهابيون فان معظمهم هم حقاً من المتصوفة وتتملكهم فكرة الاستشهاد ، انها الموضوع الرئيسي لروايات وليام أوفلارتي ، وكروسبي الشهيد هو مزيج من المتصوف والنيتشوي يعيد إلى الأذهان ابطال سافينكوف . إنه كما يقول هو « برق يلتمع في الظلمة » . إنه لا يحتاج إلى مرشد في الطريق إلى السماء . « إنني أنتظر فوق الجبال في أوروبا ، والعالم المسيحي بأسره ينتظر القيامة حينما توسّد آلهة النقود والرغبة الحسّية الثرى ، ومن جديد يتوجّ مخلصنا المسيح ملكاً للملوك ، لسوف يحل السلام بين البشر كافة ، ولن يعود هناك شعب أو مرض وستكون المعاناة الوحيدة هي توق الأرواح الى التوحد مع الله » ان كل ذلك يصدر عن ارهابي منغمس في القتل العشوائي عقب الانتصار في الحرب على المحتّل الأجنبي بالفعل .

ويتوالى ظهور مسألة الحافز مرات عديدة في الكتب التي كتبها المنتمون ، فهناك التفسيرات التقليدية : «خدمة الشعب ، إنقاذ الأمة ، تخليص البشرية ، ولكن هناك أيضاً ضمير المثقف السيء الذي وصفه ريجيس دوبريه ، إن بطله فرانك لا يعثر على هويته الحقيقية أبداً مع رجال العصابات ، لقد انضم اليهم لأنه يعاني من وخز الضمير » .

« أين كنت يوم شن الفلاحون الهجوم في ديان - بيان - فو ، حينما أوقعت شرطة باتيستا فرانك باي عاجزاً على أحد أرصفة سانتياجو في كوبا ؟ . . . إن الجميع منهمكون في شرب اقداح النبيذ ومداعبة صدور النساء » .

وهناك حديث مسهب عن جرامسكي ولوكاتش ولكن في النهاية :

« لا أهمية للمصير - الاشتراكي أوغيره - حتى لو نظرنا إلى مصير هؤلاء المسافرين ، المهم أن كل شيء يسير على ما يرام » .

حينما اندلعت الثورة المقدونية مع بداية القرن الحالي كان بيجو جافوروف شاعراً بلغارياً شاباً يتلمس طريقه نحو معنى الحياة ، كتب إلى أحد أصدقائه يقول : « ان عالمي الداخلي بأسره حل به الدمار ، وسأتعرض للضياع اذا لم أجد وحياً جديداً يلهمني » وقد وجد هذا الوحي في صفوف المنظمة الثورية لمقدونيا الداخلية . وكنتيجة لذلك كتب بعض القصائد الرائعة ، وقد دام الحماس عاماً أو عامين ثم عاد إليه الهمود والعجز والشعر الرمزي بالأسلوب الفرنسي .

ويتجلى حافز المثقف الذي يحنّ عبثاً لأن يكون إرهابياً في « لصوص في الليل » لارثر كوستلر ، فالقائد الارهابي يبلّغ جوزيف بأنه يمتلك تلك النزعة الفكرية التي تجعله يرى وجهي العملة « وتلك رفاهية لم يعد بوسعنا السماح بها ، ان علينا أن نستخدم العنف والخديعة لكي ننقذ الآخرين من

العنف والخديعة » ، ولكن على الرغم من أوهامه الأخلاقية فان جوزيف يطلب السماح له بالمشاركة في العمل « حتى ولو كان عملاً واحداً » . وكان من اليسير للغاية على الفتى الذي سئل عما حدا به الى الانضمام إلى المقاتلين من اجل الحرية أن يجيب بالاستعانة بالآية الأولى من الاصحاح العشرين لسفر الخروج : « أزيلوا ذكرى أماليك من تحت السماء » وبالآية الأولى من الاصحاح التاسع عشر لسفر التثنية : « عيناك لن تعرفا الشفقة » ، « لسوف تسكر سهامي بالدم » . لقد كان جوزيف بطل كوستلر ديمقراطياً اشتراكياً تحول إلى الارهاب لأنه ادرك أن الأمة التي تتألف من معترضين تنبح لاعتراضاتهم ضمائرهم لا يمكنها أن تواصل الحياة وانه « اذا ماتُرك الأمر لهم فسوف يحل بساحتنا المصير الذي حل برفاقهم في المانيا والنمسا وايطاليا وغيرها » ، ومن هنا جاءت ضرورة التحدث « باللغة الوحيدة المفهومة على امتداد العالم من شنغهاي الى مدريد ، اللغة العالمية الجديدة التي يسهل تعلمها ، لغة المسدس القابع تحت السترة الجلدية » .

وقد قدّم الكتاب المقدس الهاماً لا ينضب معينه لابراهام شتيرن (يائير) «فالله ذاته محارب ، وما النضال المسلح والقاء القنابل الا أعمال تتضمّن تمجيد الرب ، ومملكة اسرائيل » . وهي مفهوم محوري وغامض الى حد ما في تفكير يائير ، سيتم التوصل اليه فحسب من خلال طريق وادي ظل الموت . ويظهر موضوع الموت في كافة قصائد شتيرن تقريباً بما في ذلك نشيد ليحى « لقد انضممنا إلى الصف جنوداً مجهولين لا يميزهم زي موحد طوال حياتنا ، لا يحيط بنا الا الروع وظل الموت » .

لقد تخرج جوزيف بطل كويستلر من مدرسة الديمقراطية الاشتراكية ليعانق النزعة الارهابية ، وقد كتب جورجي كاردوس ، وهو روائي آخر من أصل مجري ، قصة توضح السبب الذي دفع أحد الارهابيين إلى التخلي عن النضال المسلّح ، والسبب لا يكمن في الضعف وانما في أنه وجد تحقّقه في طريقة حياة أخرى . وتقع أحداث الرواية في فلسطين خلال عهد الانتداب عام ١٩٤٦ أو ١٩٤٧ حيث نجد ديفيد هارباً يطارده البريطانيون باعتباره ارهابياً وتطارده إرجون لعدم قيامه بمهمة عهدت بها إليه ، فيختبىء في مزرعة افراهام بوجاتير وبالتدريج يتحول ازدراؤه لأولئك الذين لجأوا الى المقاومة غير العنيفة الى اعجاب .

وكانت مشاكل كبرى ومتعددة تحكم حصاراً ضيّقاً على الإيرلنديين وعلى فرانك بطل دوبريه . لكن مسألة الهدف لم تكن من بين هذه المشاكل ، فقد كان النضال ضد القهر هو الاهتمام الرئيسي لهم ، وكانت قضايا الخطأ والصواب يقينية بالنسبة لهم ، فهم يقاتلون من اجل قضية مقدسة ، وكان من شأنهم الا يتفهموا دعاة الارهاب (الافلاطونيين أساساً) في الولايات المتحدة خلال الجيل التالي الذين كانوا يرون في بوني وكلايد أبطالهم ، كان مثل هذا الطرح كفيلاً حقاً بأن يكون تجديفاً . إن مفهوم التدمير ذاته كمسرح فوري كان يمكن أن يكون شيئاً داعياً للانحطاط بقيمة الذات ان لم يكن من غير الممكن استيعابه على الاطلاق[1] ، لقد كانت تلك هي لغة الارهابيين الدجالين . غير أن المنظومة العدمية لم تكن جديدة ، فقد ظهرت في أوساط اليمين واليسار على السواء ، لقد كف شين الارهابي في « الوضع الانساني » لاندريه مالرو عن الايمان بالانسانية منذ وقت طويل ، وهو يقول : « لا أود أن تكون الإنسانية لامبالية على هذا النحو إزاء كل ضروب المعاناة » غير أنه في النهاية يلقي بنفسه وقنبلته أمام السيارة التي كان يعتقد مخطئاً أن شيانج كاي شيك كان يقودها .

إن مسألة الهدف لم تعن على الاطلاق ارنست فون سالومون ورفاقه الذين قاموا باغتيال راتينو ، وحينما وُجّه اليهم السؤال : « ما الذي تريدونه ؟ » كانت الإجابة « ليس بوسعنا أن نجيب لأننا لم نستطع أن نفهم السؤال ، اننا لم نكن نعمل وفق خطط وأهداف محددة » . ومن المؤكد أنهم لم يكونوا يقاتلون « من اجل أن يصبح الناس سعداء » وانما دفعتهم إلى العمل قوة داخلية من نوع ما ، وهكذا دفعهم حادث مثير إلى حادث آخر . وقد أخبرهم كيرن قائد المجموعة انه لقي حتفه منذ التاسع من نوفمبر ١٩١٨ - يوم الهدنة ، يوم العار الوطني ، وكل ما بقي انما هو الدمار « اننا نريد الثورة ، ومهمتنا هي أن ندفع لا أن نمسك بزمام السلطة » ، وحينما سئل كيرن عن نوعية الحافز الذي ينبغي أن يعترفوا به اذا ما اعتقلهم البوليس عقب الاغتيال ، أجاب وهو بين الضيق والشعور بأنه يواجه مشهداً مسلياً : « يا لله ، ما أقل أهمية هذا الأمر ، قولوا إنه كان من حكماء صهيون أو انه ترك اخته تتزوج راديك ، ما أهمية هذا ؟ » كانوا يخافون من شيء واحد فحسب : امكانية أن يظهر راثينو الميت كشاهد خلال المحاكمة . . .

ويسود المناخ النفسي العدمي جانباً كبيراً من الأدب اليميني للفترة الأولى من عشرينيات القرن الحالي ، فشلاجيتر في مسرحية هانز جوست التي تحمل العنوان ذاته (والمهداة الى أدولف هتلر « تعبيراً عن اعجاب ممزوج بالحب ») لا يساوره الاضطراب من جراء مسألة ميتافيزيقية . فبما أن الفرنسيين يحتلون الدور فان من واجب كل وطني ألماني أن يقاومهم بكافة السبل الممكنة . والمشكلات الاخلاقية هنا لا تعني الجندي السابق كثيراً . واذا ما كانت قد راودته الشكوك في أول الأمر فقد كانت هذه الشكوك تدور حول فعالية الارهاب ، يقول :

« السياسة لا يمكن أن تخلقها حفنة من المندفعين ، ذلك لا يعدو أن يكون تلاعباً بالارهاب . إن كل عمل ينبغي أن يكون له هدف . . . ولن تحرر خمسة وعشرون رطلاً من الديناميت متراً مربعاً من التراب الالماني ، ورجال العاصفة والانقضاض الفرديون هم عبث لا معنى له دون تأييد الجماهير .

أوبيرنيتز : « كلا ، ان يأسنا المطلق يجب أن يكتسح عقلية العبيد وحافز

---

(١) حينما يراودك الشك مارس الاحراق ، فالنار هي إله الثوري ، النار هي المسرح الفوري ، وما من كلمات يمكنها أن تعادل النار ، احرق العلم ، اشعل الكنيسة ، احرق ، احرق» . وعقب ذلك بأقل من خمس سنوات كان ريد كليفر وجيري روبين رجلين آخرين يحرقان آلهة العنف التي عبداها يوماً . (المؤلف) .

الربح وكل الممارسات البيروقراطية الوضيعة » .

شلاجيتر : « اذا كان الأمر كذلك فان المانيا بأسرها ستصبح مقبرة .

أوبيرنيتز : « لأن تصبح مقبرة نظيفة خير لها من أن تغدو حانوتاً للثياب العتيقة من الدرجة الخامسة » .

شلاجيتر : « تلك مسألة رأي » .

ولكنه بالفعل ينضم إلى أصدقائه في القيام بالعمليات الارهابية ، يقول : « ما الذي يهمّ إن لاقيت حتفي برصاصة في العشرين أوبالسرطان في الأربعين أوبالسكتة الدماغية في الستين ؟ إن الناس يحتاجون إلى قسس لهم شجاعة التضحية بالأفضل ، قسس يمارسون الذبح . . . » .

وينتمي أبطال أرنولت برونين ، من مقاتلي الفيالق الحرة في سيليزيا العليا ، الى النسيج ذاته . وقد كان برونين صديقاً لبرتولد بريخت وقد اجتذبه مثله العمل العنيف ، لكنه اتجه بحدة إلى اليمين ، غير أنه من وجهة نظر النازيين ظل دائماً موضع شك إلى حد ما . وبينما استخدموه حرصوا على إبقائه في متناول سلاحهم ، والأمر ذاته ينطبق على هانز .

فالادا الذي كتب صورة شبه توثيقية لفلاحي شيلزفيج هولشتين من محترفي القاء القنابل الذين كانوا يأملون في أن أعمالهم العنيفة ستجذب الانتباه الى الوقر الذي ينوءون به .

وفي قصة سالومون التي أشرنا اليها يظهر أوتوزعيم المجموعة الشيوعية المقاتلة ، وهو شاب متعاطف ومقاتل شأن اليمينيين الذين يظهر نحوهم انجذاباً طبيعياً « سرعان ما أصبحنا أصدقاء » . ومثل هذه الصداقات التي تبدو غريبة هي أمر مألوف تماماً في الواقع . فالمحرضون تربطهم في النهاية أمور كثيرة مشتركة . ويحكي ميلوفان دوغلاس في قصة حياته كيف أن الشيوعيين سرعان ما وجدوا لغة مشتركة في السجن للحوار مع المؤمنين « المتعصبين الثوريين الوطنيين » المنتمين إلى منظمة أوستاشا الكرواتية . لقد كان لهم عدو واحد هو الحكومة وكانوا يزدرون المعارضة الديمقراطية لافتقارها إلى الشجاعة . ومن المؤكد أن الشيوعيين ما كانوا يوافقون على الصلات التي تربط أوستاشا بايطاليا الفاشية وبالمجر ولكنهم لم يقوموا بادانة هذه الصلات . لقد كانت صداقتهم « صداقة مشروطة » .

ولم تكن المشكلات الجنسية موجودة بالنسبة لأعضاء نارودنايا فوليا أو الايرلنديين أو المقدونيين . واذا ما وجدت فقد كان هناك اجماع على عدم مناقشتها علناً ، فالحياة السرية تقضي على الصعيد النظري ، وان لم يكن عملياً دائماً ، بامتناع المشاركين فيها عن الارتباط بأية علاقات وثيقة ، بل ان البعض دعا إلى الرهبنة : فكل شيء يمكن أن يعوق الارهابي عن القيام بمهمته الرئيسية محظور ، ويمكن دون شك أن نناقش بصورة مسهبة ما اذا كان هذا كفّاً أو تسامياً أو مجرد رد فعل من جانب جيل له قيم ومعايير مختلفة. حقاً أن المشكلات الجنسية قد احتلت مكاناً بالغ الأهمية في كتابات الارهابيين المعاصرين وبصفة خاصة في الولايات المتحدة والمانيا ، وأصبح انفجار القنبلة ينظر اليه باعتباره نوعاً من الانتعاظ أو الوصول إلى النشوة . بل لقد ذهب مايكل بومان ، وهو عضو سابق في احدى الجماعات الارهابية ، إلى القول بأن اختيار أورفض الارهاب كان « مبرمجاً » ، فهو رد فعل الفرد الذي لا يمكن تجنّبه ازاء وجود أو غياب الخوف من الحب ، فمعظم الارهابيين ان لم يكونوا جميعاً لاذوا بالهرب من ذلك الخوف إلى العنف الشامل . وقد وصل من تجربته الخاصة وكذلك من كتابات مالاتسبّا وأريك فروم إلى الاستنتاج بأن الممارسة الثورية أو بالأحرى الارهابية والحب لا يتعايشان في زمن واحد . وربما كان بومان محقاً فيما يتعلق بالارهاب الأوروبي والأمريكي الشمالي في الستينيات والسبعينيات من القرن الحالي ، أما ما اذا كان بمقدور المرء أن يصل إلى استنتاجات أوسع نطاقاً من هذا الطرح ، فانه أمر يبدو أقل يقينية .

دار الآداب تنشر

الدكتورة حياة جاسم محمد

الدراما التجريبية في مصر والتأثير الغربي عليها